في التربية الحديثة :

التاريخ والقومية . . .

للأستاذ إبراهيم علي طرخان

في الواقع يصعب تحديد معنى كلمة « تاريخ » ، بل فهمها على الوجه الصحيح ، فليس هناك تعريف نهائي مطلق ، لسبب واحد فقط : وهو أن مجرد إدراك التاريخ على حقيقته جزء من التاريخ؛ لذا كان التعريف خاضعاً لقانون التطور ، ومن هنا كان لكل عصر ، بل لكل أمة تعريف خاص ، أطلق على ضوء فلسفة العصر وأهداف الأمة ومثلها العليا .

وليست مهمة المدرس في ابتداع تعريف جديد ، أو حتى التسليم بتعاريف أخرى — إن كان للتعاريف أهمية في المراحل الأولى من التعليم — ما لم يحللها ويتفهمها ويقتنع بها فيما بينه وبين نفسه أولا ؛ غير أن الأجدر به أن يوجه همته ونشاطه نحو تفسير ما غمض في حياتنا المعاصرة ، وذلك على ضوء التاريخ ، فالاتجاه الحديث في تعليم التاريخ يقتضي هذا النهج لأمرين :

١ — إن الحاضر هو منبع الأسئلة ومثير الاستفهامات ومحك التفكير ، بل هو مفر كل الأغراء للاطفال فضلا عن الكبار ، وهو معقد كل التعقيد .

٢ — هنالك ماض لا يزال حياً في حاضرنا يؤثر فيه ولم تنقطع صلته به ، كمظاهر الحضارة والتقاليد وغيرها ، ويعتبر الحاضر امتداداً له .

لهذا كان الحاضر متشعب النواحي مختلف الاتجاهات ، وهي سنة كل مجتمع في بنائه وقيامه على الاختلاف لا على التشابه ، ولفهمه على أصوله لا بد من التاريخ ، ولدى الأطفال استعداد فطري تاريخي[١] . هذا يوضح أن من الممكن فهم التاريخ على حقيقته ؛ يقول الدكتور Barker : « قد يجعلنا التاريخ متفرجين على الحاضر وما هذا الوجود المعاصر إلا حلقة من حلقات ماضينا التاريخي ، فالتاريخ إذن هو إدراك النفس الشاعرة لكنهها في مظهرها الحديث »[١] ؛ وما الإنسان المعاصر نفسه إلا إحدى مظاهر أو نتيجة ذلك الماضي البعيد : وحينما يستطيع الإنسان تفسير حياته بالتاريخ ، أمكننا أن نقول : إن الإحساس التاريخي قد تكون لديه ونما فيه .[٢]

وإذا نحن تصورنا التاريخ على أنه مادة أو كتل من المعلومات Bodies of Knowledge ، كنا مخطئين ، فما هذا الاعتبار ، بمعنى آخر ، ما تقسيم المعرفة الإنسانية إلى مواد إلا تقسيما مصطنعاً لا مقابل له في عالم الحقيقة والواقع[٣] ، إذن علينا التحلل من هذا الاعتبار إلى حد كبير ، بل من دكتاتورية الكتاب المقرر ، فليس هو الفيصل في معرفة التاريخ أو آخر معرفة له ؛ وربما — إن كان صالحاً — اعتبر مجرد مقدمة وتمهيد لدراسة التاريخ على حقيقته[٤] .

قد يميل البعض إلى اعتبار التاريخ رواية تمثيلية ، منقطعة كل الانقطاع عن حياتنا الحاضرة ، بدعوى أنه يمت إلى عالم آخر غير عالمنا . هو عالم الأموات ، وقد مات بموتهم ، فلا أهمية حقيقية في النبش عن أحوالهم ، ولا بأس من إيراد دعوى من هذا القبيل قال بها أحد علماء العصور الوسطى بصدد حديثه عن المؤرخين : « وهم على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس »[٥] ويشترط بعد ذلك شروطا في المؤرخ لا محل لها هنا ، والزعم بأنه قد مات بموتهم والحديث فيهم أو عنهم إنما من باب القصص ليس غير لا يتمشى مع المنطق ولا الحقيقة ، تلك الحقيقة التي تطالعنا كل يوم في كل مظهر من مظاهر حياتنا المعاصرة : في المباني ، في الزي ، في المواصلات ، في التقدم ، في القنبلة الذرية في غيرها ... ؛ كل هذا إنتاج تسلسل طويل ، وكل مرحلة لابد لها من بداية ، وما دامت الحياة كائنة ، فلم تدن النهاية بعد ؛ هذا يوضح لنا ارتباط الماضي بالحاضر ووجوده فيه وامتداد هذا كله إلى المستقبل . وربما أراد البعض بالتاريخ في هذا المعنى الروائي أو الدرامي ، أننا متفرجون ، وهذا خطأ إن وقف المعلم والتلميذ

(١) ينظر بحث الدكتور القومي : « سيكلوجية المواد الاجتماعية » بكتاب : مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية ص ٢١ — ٣٧

(١) T clarke : Foundations of Teaching History, Ch2, PP 34 etc

(٢) المصدر السابق ص ١٥١ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤) Bourne H . E . The Teaching of history and Civics In the Elementary and Secondary Schools, PP. 51 etc

(٥) السبكي (تاج الدين بن عبد الوهاب) : « معيد النعم ومبيد النقم » ص ٩٤ .

موقف المتفرج ، فالمهمة الحقيقية للمعلم : إلى أى حد يشعر التلميذ أنه ممثل وليس متفرجاً ؟ ! كثير من الشخصيات تبدو فى مخيلته ، قد لا تختلف عنه إلا فى الشكل أو العرض لا الجوهر ؛ فأى نصيب أو سهم يكون له فيما يقومون به ؟ فيم يختلفون عنه كما قال قيصر أو الثورة الفرنسية ؟ ؟ إنه يترك مسرح درس التاريخ ، وتذهب شخصيات الرواية عن خاطره ، ومن ثم يتجه فى طريق ، بينما اتجهت الدراما الإنسانية العامة إلى نحو آخر .

وقد غالى دعاة هذه الناحية إلى حد تفضيل بعض الروايات المشهورة على التاريخ ودراسته من حيث الأثر وما تتركه فى النفس ومثلوا بروايات « شكسبير » نحو : Hamlet و macbeth والرد واضح ، فإذا اعتقد المشاهد أو الدارس ، أن ما يرى أو ما يقرأ أو ما يسمع قد وقع فعلا وشمل أناسا مثله لا يختلفون عنه كثيراً ربما كان هذا أبعد فى تأثيره وأعمق فى إيحائه [1] ويستوى فى هذا الكبار والصغار إلى حد ما ، والواقع ليس التلميذ الصغير مستعدا لإدراك حقيقة التاريخ كشىء يشمله مباشرة ، كمجرى أو أسلوب عام للحياة ، هو نفسه عليه أن يأخذ بنصيب فى هذا الأسلوب : إن إعلاء أو استمرارا أو تعديلا ، لأنه يبدأ حياته حيث انتهى أسلافه ؛ وإذا حاولنا النقص والهدم لاحتجنا إلى القرون الطويلة التى قضاها أسلافنا فى التطور فى مختلف فروع الحياة ، حتى وصلوا إلى المرحلة التى نحن عليها ، والتراث الذى خلفوه لنا ... [2]

على هذا كان تدريس التاريخ بل فهمه على الوجه الصحيح غير ممكن إلا للراشدين . ففهمه يحتاج إلى خبرة ، وخبرة الطفل لا تزال قاصرة ، والخبرة أساس فى تكوين « فلسفة الشخص » أو نظرته إلى الحياة ، وهذه الفلسفة أشعر حقيقة أنها تنقصنا نحن الكبار ، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لمعظم الراشدين فكيف تكون بالنسبة للطفل ! ؟

ومع كل هذا لا بد من تدريس معلومات للطفل فى مراحله الأولى تحت عنوان « تاريخ » . ما هى هذه المعلومات ؟ وكيف تدرس ! مبحث آخر

المهم الآن ، هو أن التسليم بهذه الحقيقة يزيل من أمامنا الكثير من فوضى العهد القديم والطرق التقليدية التى من أبرز خصائصها فى رأى فيلسوف التربية الحديثة « ديوى » ثلاث :

١ — الالقاء المطلق أو الإيجابية المطلقة من جانب المدرس .

٢ — الاستماع المطلق أو السلبية المطلقة من جانب التلميذ وعدم احترام فاعليته وذاتيته .

٣ — صب المعلومات دون نظر إلى قيمتها فى نظر التلميذ[1]

فيحفظ التلميذ شيئا من الأحداث والألفاظ ، لا دلالة لها فى نفسه بالمرة ، ثم نعتقد بعد هذا خطأ أننا نعرف تاريخا أو نعلم تاريخاً ، لا لشىء إلا لأننا قرأنا وحفظنا الكتاب المقرر ، وأساس هذه الفوضى وهذا الإفلاس فى النتائج من (حيث تكوين المصرى المثقف المتعلم) المستفيد من التاريخ الحقيقى ، هو الخلط بين التاريخ وكتاب التاريخ ، وهذا خلط طبيعى فى مثل هذا الموضوع ، ومما يزيد فى صعوبة تدريس التاريخ الحقيقى للطفل عدم إمكان تطبيق الطريقة العلمية أو التجريب فى تدريس التاريخ ولا أعنى استخلاص الحقائق من الوثائق طريقة علمية لتدريس التاريخ ، فهذا عمل المؤرخ المختص ووفق شروط كثيرة جداً ودقيقة لا تتأتى للمتعلم الناشىء — إن أردنا إخراج مؤرخين — ويمكن تلخيص هذه الشروط فيما يندرج تحت هذين الأساسين :

١ — معيار الصدق والحيدة العلمية التى يجب أن نتأكد منها مقدما بالنسبة لمؤلف الوثيقة .

٢ الدقة والوضوح الذى يجب توفره فى الوثيقة[2] .

هل يمكن أن ألخص ما سبق فى أن التاريخ هو طريقة للحياة ، هو مجرى الحياة المتدفق ، هو مدى شعور المعاصر الدارس ينصيبه فى هذا المجرى . وما ينبغى عليه كمصرى يعيش فى القرن العشرين؟ بمعنى آخر : إن إجابة السؤال الأول تعطينا فلسفة التاريخ . »[3]

ما الذى نعنيه من تدريس التاريخ ؟ هذا مبحث المقال القادم إن شاء الله .

إبراهيم على طرخان

---

(١) F . C . , B 28.

(٢) الدكتور حسن عثمان (منهج البحث التاريخى) مقالات نشرها بمجلة الرسالة تحت عنوان « كيف يكتب التاريخ » صيف سنة ١٩٤١م

D. wey : School and Society : Ch. 2.: (١)
The school and the life of the child PP 31—56
Keatinge: Studies in the teaching of History Ch 2: (٢)
The Scientific method in teaching Hist. and school problems PP.29—32.

ينظر أيضاً : الدكتور زيادة : صناعة التاريخ فى مقالات بمجلة الثقافة

(٣) ينظر بحث : شفيق غربال بك : « التاريخ والمدرسة » فى كتاب (مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية) (ص ٦١ — ٦٥)